أسفــار الفيـــدا

بقلم الأستاذ فؤاد محمد شبل

١ ـ تعريف

تعتبر أسفار الفيدا من أقدم روائع الفكر البشري : الأدبية والسياسية • فهي أقدم من منجزات الفكر اليوناني ومن مصنفات الكتاب العبرانيين ، ولا يفوقها عراقة الا آثار الفكر المصري • وتزودنا هذه الأسفار بكل طريف عن الفكر الهندي القديم • وتعتبر مرحلة الفيدا أقدم المراحل التي مر بها الفكر الهندي ، وتمتد فترة تسعمائة سنة من ١٥٠٠ قبل الميلاد حتى ٦٠٠ قبل الميلاد ، وتشمل فترة استقرار الآريين في الهند وانتشار ثقافتهم وحضارتهم فيها تدريجيا • وظهرت في ابان هذه الفترة « جمعات الغابات » ، ومنها انطلقت المثاليات الهندية •

وتضم الفيدا أربعة أسفار هي :

ريك • يجور • سام • أثرفا •

ويعتبر السفر الأول أعظمها أهمية بلا قياس • الأمر الذي يدفعنا لعرضه بشيء من التفصيل ومزيد من التحليل • اذ توشك ان تكون الاسفار الثلاثة الأخرى فروعا له •

ويحتوي سفر « ريك » على الترانيم التي أحضرها الآريون معهم الى الهند من موطنهم الأصلي • وأصبحت هذه المجموعة من الاناشيد ركيزة فكرية حالت دون ذوبانهم في مجتمع الهند البدائي •

ويضم سفر « يجور » أدعية دينية تقال عند تقديم القرابين •

وسفر « سام » مجموعة طقوس دينية نجد كثيرا منها في سفر « ريك » • ويضم كذلك طائفة من الترانيم تنشد وقت تقديم القرابين • فانه ـ والحالة هذه ـ لا يفترق عن سفر «ريك» الأمر الذي يغرينا بالعدول عن عرض هذين السفرين في دراستنا اكتفاء بدراستنا سفر « ريك » : سفر الفيدا الأساسي •

وللسفر الرابع « أثرفا » أهمية خاصة من ناحية كونه محتويا لتقريب مسافة الخلف بين

الفكر الآرى وثقافة شعوب الهند الأصلية التى سكنتها قبل الاريين •

ويتكون كل سفر من أسفار انفيدا من ثلاثة أجزاء :

يطلق على الأول « مانترا » ويتألف من تراتيل تعرف باسم «سامهيتا»• يدعى الثانى «براهماناس» ويتضمن الفرائض والواجبات الدينية •

واصطلح على تسمية الثالث « الأوبانيشاد » ، ويناقش المشكلات الفلسفية ، وسيكون موضع دراسة مستقلة وبحث خاص •

ودراسة التراتيم الواردة بالسفر الأول من أسفار الفيدا (أى سفر ريك) ضرورة لازمة لأى تقييم سليم للفكر الهندى • وعلى الرغم مما تحفل به من المجازات الفظة والأساطير والاوهام أو التوليفات الفجة ، ما برحت مصدر الاتجاهات والتطبيقات الفكرية للآريين الهنود ، ولا يمكن تفهم أنماط الفكر الهندى من غير دراستها • وتكشف دراستها للباحث عن عذوبتها وبساطتها وفتنتها اذ تسعى للكشف عن مكنون العالم •

ويعتمد الباحث فى دراسته أسفار الفيدا على متن انحدر من فترة الازدهار الثقافى وقتما اتخذ الآريون سبيلهم الى الهند من موطنهم الأصلى • فانهم قد احضروا معهم طائفة من الآراء والمعتقدات التى ازدهرت وتتابعت فى التربة الهندية • ولابد أنه قد انقضت فترة طويلة بين تصنيف هذه التراتيم وجمعها ، ولا شك انها كانت متداولة قبل ميلاد السيد المسيح بألف وخمسمائة سنة •

وينادى بعض الأساتذة الهنود بان تراتيم الفيدا ترجع الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ويغالى البعض فيرجعها الى عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد والبعض الاخر يردها الى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد • ويبدو لى أن اعتزاز الباحثين الهنود بعراقة تراثهم الادبى القومى ، يخرجهم عن جادة البحث العلمى الأصيل مسيرين بالنعرة الوطنية • اذ يحاولون سلب الثقافة المصرية عراقتها وانكار اعتبار مصر مهد الحضارة الانسانية وموطن الاشعاع الفكرى• ويشاركهم فى هذه النظرة الشعوبية الضيقة بعض الباحثين الأوربيين متأثرين بالتعصب للعنصر الهندى الأوربى • وانما لنحمد للعلامة رادا كريشنان رئيس جمهورية الهند الأسبق تحديده عام ١٥٠٠ قبل الميلاد تاريخا لتراتيم الفيدا •

٢ ـ سفر ريك •

يتألف قسم التراتيم (المعروف كما ذكرنا باسم سامهيتا) من ١٠١٧ ترنيمة (وتعرف بالسنسكريتية سوكتا) • وتشمل ١٠٫٦٠٠ موشحة •

ويؤثر الأساتذة الهنود تقسيمها الى عشر دوائر يطلقون عليها اللفظ السنسكريتى «ماندالا» يضم كل منها طائفة من التراتيم • ومن قبيل المثال : تضم الدائرة الأولى ١٩١ ترنيمة تنسب الى خمسة عشر حكيما •

ويحار الباحث فى تكييف طبيعة هذا السفر الذى يعتبر أهم أسفار الفيدا كما قدمنا • ويرد ذلك لكونه الحصيلة الفكرية لأجيال متعاقبة من المفكرين : أعنى أنه يضم بين طياته طبقات فكرية متباينة • لكن يمثل السفر ـ فى جوهره ـ عقيدة دينية لعصر ساذج برىء من السفسطة التى يجلبها التحضر فى ركابه• اذ تتسم كثرة التراتيم الساحقة

بالبساطة والسذاجة ، وهى تعبير عن وعى دينى لعقل كان لا يزال متحررا من الحذلقة التى المت بالمجتمع الهندى بعد أن أصاب قسطا ضخما من الارتقاء الحضارى • ونجد قبسا من الوحدانية فى بعض ترانيم هذا السفر ، لكنها ابعد ما تكون عن أن تقارن بتلك الوحدانية الدينية النفاذة التى هى سمة الأديان السماوية •

وسنتولى فيما بعد تحليل العناصر الأساسية لسفر « ريك » من نواحيه الفكرية المختلفة :

أولا – اللاهوت

ثمة ظاهرة مذهلة لترانيم سفر « ريك » مدارها طابع الشرك الذى يتجلى فى ذلك الحشد الضخم من الآلهة الذين تتغنى بهم ترانيم السفر وتتعبد اليهم • ولكن يصدم الباحث ما تحتويه بعض الترانيم من آراء فلسفية تجريدية تتسامى عن نزعة الشرك البدائية التى تحفل بها جمهرة الترانيم الأخرى •

والحق ؛ يستبين الباحث من سفر «ريك» ثلاث طبقات فكرية دينية مميزة :

شركية (تعدد الآلهة) ، توحيدية ، احدية•

ومن ثم ؛ يعتبر هذا السفر الأساسى من اسفار الفيدا سجلا لتطور الفكر الدينى منذ بدايته الى أن بلغ مرتبة التجريد السامية • فان تلك الحشود من الآلهة التى ترنمت بذكرها أسفار الفيدا كانت فى الأصل تعبيرا عن مظاهر قوى الطبيعة ، ثم تطورت تدريجيا الى كائنات معنوية وفوق مستوى البشر • وقد كان الخيال يشطح بالآريين فيتصورون لجميع الأشياء – سواء ما كان منها حيوانا أو جمادا – أرواحا ، وأن لجميع مظاهر الطبيعة – المادية والمعنوية – مشاعر وأحاسيس •

فللطبيعة عند قدماء الآريين الهنود وجود فى مكنتهم المداومة على الاتصال به • وكانت الشمس أهم ما طالعهم من مظاهر الطبيعة فألهوها كما الهوا القمر والنجوم والبحر والسماء والفجر والغسق• وعبادة مظاهر الطبيعة هى أقدم اشكال العقيدة الدينية الفيدية • وقادهم سعيهم لتفهم العالم المادى الى تصوير الأرباب – أى مظاهر الطبيعة – فى صور انسانية : أعنى أنهم عمدوا لتفسير جميع الأشياء على أساس المطابقة مع طبيعتهم ، وثبتوا المشيئة وراء الظاهرة المادية .

واذا كانت جميع الظواهر – وفى مقدمتها الشمس والقمر – تتغير ؛ فان الآريين قد لاحظوا أن السماء لا تتغير ؛ فأطلقوا عليها « ديوس » Dyaus الوارد فى الفيدا ، وقد تناقلت اللغات الأوربية هذا الاسم فى صور شتى ليعنى الرب • ثم أضفى آريو الهند على السماء والأرض صفات بشرية فجعلوا من السماء أبا ومن الارض أما ، ونسبوا اليهما صفات معنوية مثل : الاحسان، العلم بكل شىء ، القسط •

ويلاحظ ههنا تقدم متصل : من المادية الى الذاتية الشخصية ، ومنها الى الالهية• ومن تزاوج السماء بالأرض انبعثت الحشود الحاشدة من الأشياء ، ومنهما انحدرت الآلهة والانسان •

و « فارونا » هو رب السماء • والاسم مشتق من لفظ « فار Var » السنسكريتى ويعنى يغطى أن يحيط • ويعادل « فارونا » فى اليونانية « أورانوس Euranos » وفى « الزرادشتية » أهورمازدا • وتطور « فارونا » ليصبح « ميترا » اله الضياء الفارسى •

وفي أسفار الفيدا تطور « فارونا » ليغدو ربا معنويا يشرف من عليائه على الكون فيعاقب المسيء ويجازي المحسن ، ويغفر للمذنبين خطاياهم ان التمسوا منه المغفرة • ويذكر سفر « ريك » بان الشمس أصبحت بصره والسماء رداءة والعاصفة تنفسه ، وتجرى الأنهار بأمره ، وتضيء الشمس ويلمع القمر وتتلألأ النجوم خوفا منه • وتقضى شريعته – كما يقرر هذا السفر – ان تنفصل الأرض عن السماء • وهو يعلى من شان النظام المادي والمعنوى ، وارادته لا تخضع للنزوات والأهواء ، ويحيط بكل شيء فى الكون علما : فيطير الطير بأمره وتخضع الريح لمشيئته : انه – كما تدعى الفيدا – الاله الأعلى ، واله الآلهة بأسرها •

ويأخذ اله الفيدا المذنب بالشدة البالغة ، لكنه يعفو عن التائب من الذنب • لذلك نجد الترانيم التي يكرسها سفر « ريك » للرب « فارونا » حافلة بالأدعية له وطلب العفو والمغفرة والاعتراف بالذنب والتوبة •

وتلقى أسفار الفيدا على عاتق الرب « فارونا » عبء اقرار العدالة • ويخضع ذلك لناموس تطلق عليه أسفار الفيدا « ريتا RTA » واستوحاه واضعوا أسفار الفيدا من انتظام حركات الشمس والقمر والكواكب ، ومن تعاقب النهار والليل والفصول • ويتحكم هذا الناموس – أى ال «ريتا» – فى جميع مظاهر الكون : فانه شريعة العدالة التي يخضع لها الجميع حتى الآلهة ، وبغيرها تتقوض دعائم الكون •

وتغيرت طبيعة الآلهة عقب التسليم بفكرة الناموس (أو الشريعة أى الريتا) • فلم تعد الدنيا عماء (أى حالة اللاتكون) يمثل سورة الغضب العمياء لعناصر المصادفة ، بل انها نتيجة فعل يتميز بالتناسق والانسجام • وظاهر ان هذا المذهب يمنح المؤمنين به العزاء والاطمئنان كلما حزبهم الأمر وغرر بهم الكفر وخارت ثقتهم في أنفسهم• اذ مهما يحدث، يحس المؤمنون بوجود شريعة القسط فى العالم المعنوى تكشف عن بهاء الطبيعة وعظمة تنسيقها ، ويبث فى نفسه شروق الشمس غدا الثقة بانتصار الناموس (أى ريتا)•

وتعتبر أسفار الفيدا الرب « ميترا » رفيق الرب « فارونا » (القيم على اقرار العدل) ، ويقرن العابدون بينهما فى التوسل والاسترحام• ويمثل « ميترا » فى بعض الأحيان الشمس ، ويمثل الضياء فى أحيان أخرى ، وهو الاجتلاء الشامل لرب الصدق • ويشترك ميترا وفارونا سويا فيالحفاظ علىشريعة القسط (اى ال «ريتا») ويمنحان المغفرة للخطاة • وتطورت وظيفة « ميترا » تدريجيا فاقترنت بضياء الصباح ، بينما توحدت وظيفة « فارونا » مع سماء الليل •

وتطلق أسفار الفيدا اسم « سوريا Surya » على الشمس • ويكرس سفر « ريك » عشر ترنيمات للشمس • ويبدو أن عبادة الشمس تتواءم والذهن البشرى : اذ تشغل مكانا ساميا فى عقائد مصر القديمة الدينية، وهى جزء اساسى فىالعقيدة الدينية اليونانية القديمة ، وعبدها اهلى فارس • ذلك لأن البشرية قد وجدت فى الشمس مصدر الضياء والحياة وألقت لها قوى قدسية لا تدركها العقول والأفهام • وتقول الفيدا انها تدفع الناس للعمل وتطرد الظلام وتسبغ على الكون الضياء وتحمى الراحلين والقاعدين ، وهى خالق الكون ومدبرته •

وفي مواضع من أسفار الفيدا يطلق على الشمس اسم « سافيتير Savitr » ، وتخصص لهذا الاسم احدى عشرة ترنيمة • وتصفها بذات العين الذهبية وذات اليد الذهبية وذات اللسان الذهبي • ولا تمثل « سافيتير » الشمس المضيئة فحسب ، ولكن الشمس الغير المنظورة في احتجابها اثناء الليل • ولها جانب معنوي يتسم بالسمو ، اذ يلجا الى رحابها الخطاة التماسا للغفران •

ويتخذ الرب « سويا » صورة الاله فيشنو الذي يدعم العوالم باسرها • ولفيشنو Visna ثلاث مجالات : فانه يحجب الارض والسماء والعوالم العليا المنظورة للبشر الفانين • واذا كانت الفيدا تجعل من فيشنو ربا تابعا ، لكن ما تقرره عن حبه لمساعدة المحتاجين ليعتبر ارهاصا بالدور العظيم الذي أصبح يؤديه هذا الاله في العقيدة الهندوكية •

وتذكر الفيدا اسم « بوسان » باعتباره كذلك الها شمسيا • وهو صديق للانسان ، لكونه شفيعا للرعاة وحارسا للماشية • وتعتبره حامي عابري السبيل والمزارعين •

ويكرس سفر « ريك » من الفيدا خمسين ترنيمة للربين التوأمين « آشفين Asvins » ويرمزان للسناء والبريق : للقوة والحركة • وتصفهما بأنهما ابنا السماء وأن الفجر أخوهما • ولقد تطورا في العقيدة الهندوكية فاصبحا طبيبي الآلهة والناس وحماة المحبة والوداعة ومخلصي المظلومين من جميع أنواع المكابدة •

ويأتي الرب « آجني Agni » اله النار بعد الرب « اينـدرا Indra » • وتخصص له الفيدا مائتي ترنيمة • وقد انبعثت فكرة «اجني» من الشمس الحارة التي تشعل حرارتها النار في المواد القابلة للاشتعال • وتذكر الفيدا ان النار تفد من السحب مثل وميض برق ، كذلك نجد أصلها في حجر الصوان : انها تجيء من الحطب• وتذكر أسفار الفيدا أن « ماتاريشفان Màtarisvan » هو الذي أحضر النار من السماء وعهد بها الى قبيلة « براجوس Bhrgus » ، فهو ـ والحالة هذه ـ يعادل بروميثيوس في الأساطير اليونانية• وتصور الفيدا الرب « اجني » في صورة كائن ذي لحية صماء وله فكان حادان واسنان متقدة ، وطعامه الخشب أو السمن ، ويتالق مثل الشمس طاردا ظلام الليل ، ويسلك طريقا معتما عندما يقتحم الغابات ، وصوته كرعد السماء • فالنار ـ وفقا للفيدا ـ لا تسكن الأرض ، لكن مثواها السموات والأجواء • ثم تطور اله النار فجعلته العقيدة الهندية الوسيط بين الآلهة والناس وشفيعهم لديها •

وتذكر الفيدا « سوما » على انه رب الالهام والاستنارة الروحية : معطي الحياة الابدية • وقد اصبح رب النبيذ والكروم مثل ديونيسوس في الاساطير اليونانيه و « هاوما » في الاساطير الفارسية • وتتسم الترانيم التي كرستها الفيدا لـ « سوما » باجمال ، مما يدل على غرام الاريين القدماء ـ مثل الأريين المحدثين ـ بالخمر واعتبارها أداة الاستنارة والوحي القدسي •

وتذكر الفيدا « ياما » على انه حاكم الموتى ، وانه أول من كتبت الآلهة عليه الموت •

ومن جميع مظاهر الطبيعة التي تستثير شعور الفزع والرعب، ليس ثمة ظاهرة تقارن بالعواصف

الرعدية وتتحداها • ويقول الرب « اندرا » في الفيدا « أجل عندما أرسل الرعد والبرق تؤمن الناس بي » • ويتضح من استقراء الترانيم التي تكرسها الفيدا للرب « اندرا » أنها احب أرباب الفيدا للشعب • اذ ألفى الآريون انفسهم عند دخولهم أن هناءتهم تتوقف على المطر وحده، فكان أن أصبح رب المطر الاله القومي للآريين الهنود • ويعتبر « اندرا رب الظواهر الجوية للسماء الزرقاء ، ويعادل زيوس في الأساطير اليونانية وتقرر الفيدا أنه قد ولد من الأمطار والسحب ، وأنه يسبغ علينا الضياء والحياة ، وأنه يمنحنا الحيوية والانتعاش • ان السماء ـ كما تقول الفيدا ـ تنحنى أمام هذا الرب وترتعد الأرض عند اقترابه •

وبمرور الأيام تحللت علاقة اندرا بالسماء وبالعواصف الرعدية ، فأصبح الروح الربانية وحاكم الدنيا بأسرها والمخلوقات قاطبة : اذ يرى ويسمع كل شيء ، ويلهم الناس خير ارائهم وأفضل سوراتهم الفكرية • وامام عظمة رب العواصف الرعدية ، تنهزم شياطين القحط والظلام ، ولذلك هذا الرب الاله القومي للآريين يحاربون أعداءهم تحت لوائه وفي ظل حمايته لهم • وكان على اندرا أن تزيح عن طريقها جميع المعبودات التي كانت قبائل الهندية الأصلية تتعبد لها • فكان هناك عباد للماء ولشجرة اسفانا المقدسة وللثعبان •

وتسرد أسفار الفيدا في ترانيمها حشود حاشدة من أسماء الأرباب التي آمن بها الآريون الهنود كمظاهر للطبيعة • من ذلك النهر الالهي « سيندو Sindhw » وربة المعرفة « ساراسفاتي Sarasvati » ربة العلوم و « فاك Vak » ، و « آرانياني » ربة الغابة •

ثانيا ـ الاتجاهات التوحيدية •

انبنى على تطور الحضارة الآرية الهندية ان أصبح المتعلمون يضيقون ذرعا بهذا الحشد الهائل من الأرباب والربات • فكان ان انبعثت نزعة لتوحيد الأرباب بعضهم بالبعض الآخر أو طرحهم جميعا • وهكذا صنفت الأرباب الهندية في ثلاث مجموعات تتصل بـ « الأرض » و « الهواء » و « السماء » • وحصر الأرباب في عدد ٣٣٣ أو أي توافق للعدد ٣ • وكان طبيعيا ان تقود نزعة التنسيق هذه الى الوحدانية التي تتسم بالبساطة وبسيطرة المنطق عوضا عن فوضى حشد من الأرباب والربات ينابذ أحدها الآخر •

والوحدانية ضرورة حتمية تصاحب أي تصور للاله • فالله لا يمكن الا أن يكون أحدا فردا صمدا • وقاد الاستغراق في التفكير في الاله وطبيعته بعض حكماء الهند للتوصل الى استحالة أن يضم الكون الهين وكائنات لا حصر لها • ونبذوا الرأى القائل بأن الكون يحكمه اله خلقه اله أقدم منه ، اذ تنتفى فكرة الالوهية عن المخلوق• وهنا قويت نزعة صهر حشود الألهة في اله واحد • فاذا كان تعدد مظاهر الطبيعة يقتضى تعدد الآلهة ، أفلا تستلزم وحدة الطبيعة ربا واحدا يكتنف جميع الأشياء ويحيط بها : اذ يعنى اليقين في قانون طبيعي ، الايمان باله واحد•

ومن ثم ؛ تعنى عبادة « فارونا » الاقتراب كثيرا من الوحدانية ، وذلك بما تسبغه اسفار الفيدا عليه من الصفات المعنوية والروحية مثل العدل

والسماحة والاقساط والرحمة ، فانها تقول « ان فارونا هو الاله الذى يستحوذ على الانسان والطبيعة ، على هذه الدنيا وعلى الآخرة، انه يرعى السلوك الخارجى وطهارة الحياة الداخلية » •

على أن الوعى الدينى الذى يقتضى الايمان باله واحد ، لم يحل دون انتفاء الايمان بغيره • وبذلك نشأت النزعة التشوابية [1] التى يجدها الباحث فى أسفار الفيدا : فآنا تصف الاله «فارونا» بأنه السماء وأنه الأرض وأنه الهواء وأنه الكون بأسره ، اذا بالفيدا تصف الاله « آجنى » بانه الآلهة بأسرها • وفى بعض أسفار الفيدا يوصف الاله « اندرا » بأنه سيد جميع الآلهة •

وههنا يستبين للباحث أنوضع كل اله فىأسفار الفيدا يتوقف على مزاج شاعر ترانيم الفيدا وأحاسيسه الخاصة •

وبالأحرى ؟ تسيطر على العقيدة الدينية الهندوكية نزعة المواءمة بينالآراء وتكييفالأفكار، والاتجاه للملاءمة بين بعضها والبعض الآخر • فأصبحت الهندوكية تعنى لدى المفكرين جمعا من المذاهب الفلسفية والدينية وحشدا حاشدا من الأساطير وأساليب السحر والشعوذة • ويعتبر فلاسفة الهند آلهتها المتعددة تجسيدات متباينة لروح الكون ، يحكم كل منها فى منطقة اختصاصه خاضعا لسلطان الاله الأعظم ، فالأرباب جميعا نواب عنه يحكمون باسمه وله السيادة عليهم كسيادة الملك على حكام مقاطعات مملكته •

ثالثا ـ علم الكون

لم تغب المشكلات الفلسفية المتصلة بأصلالعالم وطبيعته عن ذهن المفكرين الفيديين • فانهم فى تحريهم عن الباعث الأول لجميع الأشياء المتغيرة ، تبصروا ـ مثلما فعل قدماء اليونانيين ـ فى الماء والهواء •• الخ فاعتبروها العناصر النهائية التى تتألف منها مظاهر العالم المتباينة • فالعالم أصله ماء والماء أصله هواء • ويقول الفيديون ان القوة الكونية قد انبعثت من اللامتناهى ، واعتبروا الآلهة «فارونا» و «اندرا» و « آجنى » و «فيشفاكرمان» مبدعى الكون •

لكن اختلف فلاسفة الفيدا فى تصورهم عملية الخلق : فنادى فريق بأن بعض الآلهة خلقوا العالم مثلما يشيد النجار منزلا (وكانت المنازل تبنى من الأخشاب فى الهند القديمة) • ولكن من أين يؤتى بالشجرة التى يحصل منها النجار على الخشب ؟ أجاب فلاسفة الفيدا فى مرحلة تالية من الأسفار بأن « براهما » هو الشجرة والخشبالذى تصنع منه السماء والأرض •

ويتبين من استقصاء ترنيمات الفيدا أن العالم خلقه اله قادر على كل شىء من مادة سابقةالوجود على خلق العالم هى الماء البدائى • وقد خلقه الاله بارادته ، ثم أودع الاله فى هذا الماء بذرة اضحت الجنين الذهبى الذى ولد الاله فيه فى صورة « براهما » أو الاله الخالق •

رابعا ـ الدين :

بهرت الظواهر المادية أنظار مصنفى الفيدا فأسبغوا عليها صفات البشر • ولكن لتأليه الظواهر

---

١ ـ التشوابية : الايمان باله واحد ولكن مع عدم انتفاء الايمان بغيره •

الطبيعية تأثيرا ضارا بالفكرة والممارسة الدينيتين. إذ ينبنى على ذلك صيرورة العالم مأهولا بآلهة تستحوذ على الفهم البشرى للعدالة وأهل للتأثر بصفتي البشر البارزتين : الكراهية والحب . وكثير من آلهة الفيدا لم يكتسبوا الصفات البشرية بقدر كاف الأمر الذى يدفعهم للتردى بسهولة في وضعهم الطبيعي الماضي : وتنبئنا أسفار الفيدا بان الرب « اندرا » ولد من المياه والسحب ، وانه يسقط من السماء وما الرعد الا صوت تكسره أثناء سقوطه .

فآلهة الفيدا يمثلون كما يقول الأستاذ بلوفيلد فى كتابه عن دين الفيدا شخصيات أصيبت بالشلل فتوقفت عن النمو . وحتى الآلهة التى اضفيت عليها المظاهر البشرية لها ذاتية فجة: ان لها أرجلا وأيدى كالناس ، ومنحها مصنفو الفيدا القوام الجثمانى الفعلى والانفعالات التى تجيش بالصدر البشرى والبشرة البيضاء واللحية الطويلة التى تسبغ الاعتبار على صاحبها : انهم يقاتلون ويلهون، يعبون الخمر ويرقصون ، يأكلون ويطربون . وتعين أسفار الفيدا وظائفهم : فالبعض كهنة مثل آجنى وبرهاسباتى والبعض الآخر محاربون مثل اندرا وماروتس . وغذاؤهم طعام الناس المفضل: اللبن والزبد والسمن والحنطة . ولهم نصيبهم من الضعف البشرى : فما أيسر ما يفرحون ويطربهم المديح ، وتسيطر عليهم الأنانية والنفعية والوصولية مثل ضعاف البشر سواء بسواء .وتقوم علاقاتهم بالبشر على مبدأ الأخذ والعطاء ؟ فانهم يطمعون فى قرابين البشر التى تسر خاطرهم ، وذلك لقاء تيسير أمور عابديهم الدنيوية .

وبالأحرى ؛ لا يتعبد البشر للآلهة ــ وفق لأسفار الفيدا ــ بتأثير الحب ، ولكن تحت ضغط الخوف من تلك الآلهة المتقلبة الشهوانية الحقودة والتى تجهل المعانى الخلقية النبيلة ، أو رجاء منفعتها . ويذكرنى هذا بطبيعة « يهوى » اله اليهود القومى (١) . فالهندى يتعبد لاندرا ليرسل المطر ويتوسل اليه كذلك ليمنع عنه العواصف والأنواء ، ويتعبد للشمس لتمنحه الدفء اللطيف لكنه يتوسل اليها أن لا تبتليه بالجفاف (والقحط بالتالى) .

فالآلهة فى العقيدة الهندوكية قوية أعظم منها خيرة ، ميالة للبطش أكثر من اتجاهها للسماحة.

وانبنى على الصفات التى خلعتها الفيدا على الآلهة التى سجلتها أسفارها ، وجوب تقديم القرابين اليها اتقاء لغضبها المدمر واستجلابا لرضاها . ذلك لان مناط محبة الفرد للاله التسليم له بما يقتنيه وأن يهبه النفس والنفيس . فالتضرع للاله يجب أن يقترن بتقديم القرابين اليه عن رضا وسماحة. وتذكر أسفار الفيدا أن « فارونا » اله ينعم النظر فى فجوات القلب الانسانية السرية ليكشف البواعث الخفية لأعماله . واذا كان آريو الهند قد أسبغوا الصفات البشرية الكاملة على آلهتهم ، فلقد آمنوا بأن اقامة الولائم الفخمة أفضل طريق وأقصره الى قلوبهم .

وتمثل القرابين المرحلة الثانية لديانة الفيداء فلقد انحصرت فى المرحلة الاولى فى الابتهالات ثم تطورت المزاولة الدينية من التامل الى القربان، ومن القربان الى التعبد ، ومن التعبد الى التسبيح والصلاة . ولا تكرس الديانة الفيدية معابد

١ ــ انظر مؤلفنا « مشكلة اليهود العالمية » ــ مكتبة الثقافية .

للآلهة ، والصلة مباشرة بينهم وبين عابديهم الذين كانوا ينظرون الى آلهتهم نظرتهم الى اصدقاء وأحباء • ومصداقا لهذا الرأى ؛ نجد فى اسفار الفيدا تعبيز « أبينا السماء » ، و « أمنا الأرض » و « أخينا آجنى » • والحق ، يلاحظ وجود ألفة شخصية متينة للغاية بين الناس والآلهة • وما برح الدين يتحكم فى حياة الآريين الهنود ويتناول كل صغيرة وكبيرة من حياتهم اليومية، فانهم ليتضرعون للاله لانجاز رغباتهم التافهة والجليلة على السواء•

خامسا ـ الأخلاقيات :

يتبدى للباحث من دراسة سفر « ريك » ان لفكرة السنن والشريعة (ويعبرون عن ذلك بكلمة ريتا السنسكريتية كما مر بنا) مضمونا جليلا • ذلك لأنها ارهاص بقانون الـ « كارما » الذى يعتبر من أهم الصفات المميزة للفكر الهندى • ويرى الفكر الهندى أن قانون الكارما يسود العالم بأسره وتجب طاعته على الآلهة والناس كافة، وتحتم الهندوسية أن تتواءم جميع الشرائع مع قانون الكارما وبمقتضاه يفوز الحق فى نهاية المطاف وينهزم الباطل •

وتزودنا فكرة « ريتا » بمعيار أخلاقى• ويقرر سفر «ريك» أن «ريتا» جوهر جميع الأشياء : انه حقيقة الأشياء وأن البهتان (أو آن ـ ريتا) هو عكس الصدق • والأخيار ـ كما تقرر الفيدا ـ من يتبعون طريق « ريتا » أى سبيل الصدق والنظام ، والصراحة هى السمة الرئيسية للحياة الصالحة ، والرجل الصالح فى أسفار الفيدا لا يبدل أساليبه •

وتمضى ترانيم سفر « ريك » فى تصوير الحياة المثالية ، ثم تسهب فى تحديد معالم الحياة القويمة، من ذلك :

١ ـ بذل الأدعية للآلهة •

٢ ـ انجاز الطقوس •

٣ ـ وضع حياة المرء تحت رعاية الاله والتسليم بمشيئته تسليما مطلقا •

٤ ـ الرفق بجميع المخلوقات •

٥ ـ الكرم فضيلة واجبة الالتزام والترحيب بالضعاف والمعوزين عهد مقدس •

٦ ـ تجنب البخل والميسر ولعن الغواية والزنا والشعوذة •

٧ ـ تتواءم الفضيلة مع شريعة الرب ، والمحبة هى الفضيلة •

ومهما يكن من أمر المبادىء الخلقية السامية التى تطالعنا بها أسفار الفيدا ، فانا لنجد فيها البادرة الأولى لتقسيم المجتمع الهندى الى طبقات• ويجب أن لا يغيب عن ذهننا أن الغزاة الآريين كانوا يختلفون عنصرا عن سكان الهند الاصلاء• وكان الأريون ينتظمون فى طبقة واحدة ، فكان الفرد منهم كاهنا وجنديا فى آن واحد ، وتاجرا وفلاحا فى نفس الوقت • أعنى أنه لم يوجد بين الآريين قبل بلوغهم الهند أفراد يكونون طبقة تمتاز عن غيرها من أفراد الجماعة • وفى الهند انبعثت طبقة من رجال الدين أصبحوا يكونون الطبقة المثقفة الأرستقراطية : طبقة تمتاز عن غيرها من أفراد الجماعة بسموها الفكرى وبروحانيتها• ذلك لأنه قد انبعثت الحاجة لتخصيص أفراد من المجتمع لتقديم القرابين للآلهة وتكريس انفسهم للدراسات الروحانية وقد أصبحت جزءا حيويا

من حياة المجتمع الآرى فى الهند ، وبمرور الأيام تكونت عائلات كرست نفسها للأعمال الروحية والفكرية كونوا بمضى السنين طبقة مميزة هيأ لها المجتمع الفراغ الذى يتيح لها الانصراف لتادية رسالتها الروحية والفكرية ، وأطلق على هذه الطبقة « البراهمة » • وليس البراهمة كهنة بالمعنى المفهوم فى المسيحية والبوذية ، لكنهم أرستقراطية فكرية تتسامى بالفكر عن بقية الجماعة •

ثم يأتى بعد ذلك طبقة المحاربين وطبقة التجار • وأخيرا يكون الدرافيديون سكان الهند الأصائل الطبقة الرابعة من نظام الطبقات الهندوسى •

٣ ـ سفر آتارفا

سفر آتارفا أقدم عهدا من سفر «ريك» السالف الذكر • ولقد واجه الآريون قبل دخولهم الهند أشتاتا من القبائل الغير المتحضرة كانت تعبد الحيات والثعابين والصخور • واذ استحال على الاريين القضاء عليها ، جابهتهم معضلة دمجها فى أوساطهم عن طريق تقبلهم طائفة من أنماط تلك القبائل الهمجية • فكان أن أدخل الآريون فى عقيدتهم الدينية أساليب السحر والشعوذة وزحفت عبادات النجوم والأشجار والجبال وغيرها من مظاهر الطبيعة الهندية ـ والغابات بالذات ـ الى الفكر الآرى الذى لم يكن ليدرى عنها شيئا فى موطن الآريين الأصلى . وبدهى أن يقود ذلك الى انحطاط الفكر الآرى بعد توطنه الهند وخضوعها لمؤثرات بيئتها • فكأن قانون « جريشام » القائل بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة قد سرى بين جنبات الفكر الهندى على صورة مؤداها ان الآراء الفكرية الرديئة تحل محل الآراء الفكرية القويمة •

والحق ؛ ان سفر « آتارفا » هو العقيدة الدينية للانسان البدائى الذى يرى الدنيا حافلة باطياف عديمة الشكل وأرواح الموتى • واذ يتحقق الانسان من عجزه ازاء قوى الطبيعة ، تستحيل حياته وموته وصحته ومرضه وسقوط الامطار والجدب والزلازل الى مسرح لخواطره : فيرى العالم يحفل بالآلهة والمردة ، ويرد الكوارث التى تحل بالناس الى غضب الأرواح ، ويعزو المرض الى روح شريرة تحل فى جسم المريض ، وينتهى به الحال الى الايمان بأنه بالقرابين وبذل الأضاحى يتيسر ترضية القوى المخيفة الغير المنظورة •

وبالأحرى ، بينما يضم سفر « ريك » بين طياته مجمعا (بانثيون) من الأرباب المحسنة الآرية المرحة ، يضم سفر « آتارفا » عالما من المردة المفزعين والشياطين المخيفين والغيلان المتوحشة تبعث الرعب فى قلوب الناس وتحطم معنوياتهم وتدفعهم الى بذل القرابين لها اتقاء لشرورها ودفعا لأذاها • وما عقيدة هذا السفر الا مزيج من المثاليات الآرية وأوهام القبائل التى تسكن الهند قبل قدوم الآريين وتصوراتها •

وأهم ظاهرة مميزة لسفر « آتارفا » أنه يضم بين طياته عددا هائلا من التعاويذ ، ويستعين بها الشخص فى قضاء حاجاته لدى الأرباب أو يعهد بذلك الى ساحر موثوق به • كذلك يحتوى السفر على ترانيم تنشد فى أثناء ممارسة الطقوس الدينية التى تقام لأربابه من الشياطين والغيلان •

وظاهر أن عقيدة سفر « آتارفا » شعبية فى

غالبها أكثر من كونها ديانة كهنوتية تتسم بسيادة الفكرة وتصطبغ بلون ثقافي • وانها المسئوله عن الخرافات والافتتان بتقديس الأوثان وغيرها من صنوف الجهل التي ما برحت تعشش في عقول دهماء الهنود وتستقر في أذهان هذه الأمة ذات الماضي الحضاري العريق •

وان طبيعة سفر « آتارفا » القائمة على السحر والشعوذة قد كانت بمثابة تحدى للفكر الهندى المتحضر فاندفعت طائفة من فلاسفة الهند الى شجب اتجاهات هذا السفر الفكرية وبخاصة وقد ساهم بنصيب موفور في اشاعة روح التشاؤم ونزعة اليأس والتواكل بين الجماهير ، وكان أن اقبل المفكرون الهنود على الدراسات العلمية ليثبتوا لمواطنيهم عقمه وخطره الفكرى على المجتمع الهندى •

٤ ـ البراهماناس

١ ـ اللاهوت

اذ ننتقل من سفر «ريك» الى سفرى «ياجور» و «ساما» والى القسم الثانى من أسفار الفيدا ويطلق عليه « براهماناس » نجد أن الكهنة الهنود قد وفقوا في اختيار عدد من ترانيم سفر «ريك» وتولوا تنسيقها وتبويبها تيسيرا لاستخدامها في الصلوات والقرابين • وهذا ما جعل رسالتهم الاجتماعية أساسية لا غناء للمجتمع عنها • بل لقد تطورت أهمية رجل الدين حتى غدا سيد جماعته والحكم في شئونها الدنيوية والدينية •

ففي سفر « ياجور » أودع الكهنة الصيغ الخاصة التي يتفوه بها العابدون عند تنصب المذبح •• الخ •

ويصف سفر « ساما » الألحان التي تنشد عند تقديم القرابين •

وما ديانة سفر « ياجور » الا نظام كهنوتى آلى الطابع •• اذ يدير حشد من الكهنة اتجاهات العديد من الطقوس المعقدة التي تقوم على الرموز والمعانى الخفية، ويفرضون حسن تاديتها والالتزام بانجاز تفاصيلها وتجنب ارتكاب أى خطا عند تنفيذ ارشاداتها • وتحفل صيغ سفر « ياجور » بالاعادات الكئيبة وبالالتماسات المملة موجهة للآلهة لكفالة أطايب الحياة •

أما ترانيم « البراهماناس » فانها أحدث عهدا من ترانيم سفر « ريك » وتضم متون الطقوس الخاصة بارشاد الكهنة في خلال قيامهم باعباء مراسم القرابين المعقدة • ولقد أدى اختلاف الكهنة على تفاصيل القرابين الى انبعاث عدة مدارس للبراهماناس • وبفضل الجدل الذى نشب بين هذه المدارس انبعثت تطورات ذات بال ألمت بمجمع آلهة أسفار الفيدا :

فلقد برزت أهمية الرب فيشنو في سفر «ياجور» • وجعلته بعض ترانيم البراهماناس تجسيما للتضحية • واشتهر امر الرب «شيفا» ويرد في البراهماناس (١) تحت أسماء متعددة• وذاع صيت الرب « آجنى » • وبعد أن كان الرب «براهماناسباتى» قيما على الصلوات أصبح الهادى الى الترانيم ومنظم الشعائر •

١ ـ يعنى لفظ «برهمان» في سفر «ريك» : الترينمة أو الصلاة الموجهة للرب ثم تطورت في الأسفار التالية فأصبحت تدل على مبدأ خلق العالم •

واتصفت ديانة البراهماناس بالتشبث بالشكليات والتزام المظاهر البراقة . وهكذا ؛ اصبحت الصلوات عمادها تمتمة بعض الأدعية والتلفظ بالصيغ المقدسة . وآمن القوم بضرورة الابتهالات لحث الاله على ممارسة الفضل . وأضحت الكلمات أصواتا مصطنعة ذات قدرات مبهمة يعجز اى انسان عن ادراك كنهها الا الكاهن الذى بات يضفى على شخصه مقاما عليا بادعاء كونه الرب على الأرض ، ويدرك بعض الكهنة ـ كما يدعون ـ مرتبة الخلود كالآلهة بفضل المواظبة على تقديم القرابين .

والقرابين فى رأى ديانة البراهماناس عماد الكون ودعامته : فبدونها لا تشرق الشمس ، وفى استطاعة البشر الفانين ـ كما يدعى الكهنة ـ انتزاع الرب اندرا عن عرشه السماوى ان ضحوا بمائة حصان قربانا . وان القرابين لتسعد الآلهة وتفيد الناس وبفضلها تغدو الآلهة أصدقاء الناس . والقاعدة فى ديانة براهماناس أن الفوز بالمغانم الدنيوية هو الهدف من القرابين ولا يقصد من تقديمها ادراك الرضا الالهى المجرد .

وبالأحرى ؛ حلت محل ديانة الفيدا البسيطة المتسمة بالورع : عقيدة متزمتة ، مخمدة للحس ، تجارية المتجه ، تقوم على التعاقد بين المرء وربه (٢) . لقد اتسمت القرابين الفيدية بكونها فرعا من فروع العقيدة لا أهمية له ، وزيادة لا مبرر لها أقحمت على الديانة ، على أنها أصبحت فى ديانة البراهماناس عمادها وقطب رحاها . فكان أن أصبحت تلك الديانة تنوء تحت أثقال الرموز التى تتسم بالخبث والدهاء ، تضيع فى النهاية فى غمار طقوس وشكليات جوفاء آلية تنعدم منها الروحانية .

وانبنى على تعاظم أهمية فكرة القربان ، استفحال دور الكهنة ، اذ انبعثت فكرة كونهم مستودع الأسفار المقدسة ومرددى الصيغ السحرية . واذ تعقدت مراسم القربان ، اقتضت وظيفة الكهانة المزيد من الممارسة والتدريب فكان أن أصبحت تورث بعد أن كان الكهنة مجرد أعضاء فى طبقة من الطبقات الثلاث التى انقسم اليها المجتمع الآرى فى بداية عهده وقتما اتصفت العقيدة الدينية بالبساطة . وأضحى الكهنة فى عقيدة براهماناس الوسطاء بين الآلهة والناس ومانحى المنن الالهية . فلا يستغرب اذ ينتهى الحال بالكهنة الى أن أسبغوا على أنفسهم اعتبارا ربانيا وأن ادعوا القدرة على القضاء على معارضيهم . ومن طبقة الكهنة انبعثت طائفة البراهمة التى أصبحت مستودع الحكمة وحارسة أسفار الفيدا التى جلبها الآريون معهم من موطنهم الأصلى . لكن المجتمع الهندى قد طالب طائفة البراهمة بالتزام قواعد خلقية صارمة منها السيطرة على الاحاسيس وأخذ النزوات بالشدة البالغة وكبح جماح الشهوات ، وضرورة تجنب الثروة والمظاهر ، وقول الصدق والحياة الطاهرة ، وتكريس الجهود للتبشير بمبادىء الفيدا ، وبساطة العيش التى تحدثت عنها الأسفار .

واذا كانت أسفار الفيدا فى بداية العهد بها مجرد ترانيم اصطنعها شعراء وحكماء على مدى العصور ، فلقد تطورت النظرة فى عهد البراهمانات فاعتبرت وحيا يوحى من السماء ويوصم من

---

٢ ـ على غرار العلاقة القائمة بين اليهود والههم « يهوا » ـ انظرا مؤلفنا : « مشكلة اليهود العالمية » ـ المكتبة الثقافية .

ينكرها أو يتشكك فيها بالكفر ويستحق الوان العذاب التي تذيقه اياها الآلهة •

٢ ـ الأخلاقيات •

تقرر البراهماناس (أي القسم الثاني من اسفار الفيدا كما قررنا) أن المرء يلتزم بواجبات حيال الآلهة والمجتمع البشرى وتجاه الحيوانات • وترتب الواجبات وفق النسق التالى :

أولا ـ واجبات حيال الآلهة •

ثانيا ـ واجبات تجاه الحكماء •

ثالثا ـ واجبات لأرواح الصالحين من السلف •

رابعا ـ واجبات تؤدى للبشر •

خامسا ـ واجبات توجه للمخلوقات الدنيا •

ويوصف بالصلاح كل من يؤدى هذه الواجبات جميعها • وعلى كل امرىء أن لا يقرب وجبته اليومية قبلما يهب أجزاء منها للآلهة ولآبائه وللناس والحيوانات • وأن يردد صلواته قبل تناول طعامه • وبهذا يعيش المرء على وفاق مع العالم المحيط به • ذلك لأن الحياة ـ كما تقرر البراهماناس ـ دورة من الواجبات والمسئوليات •

ولا شك فى نبل الفكرة • اذ تتطلب من معتنقيها التسامى عن الأنانية والتجرد من حب الذات • ولقد وردت عبارة فى البراهماناس تقرر بأن التضحية بجميع الرغبات شرط لازم لادراك التحرر الروحى • والتقوى ـ بلا ريب ـ هى الشرط الأول ، ولا تعنى تأدية طقوس محددة تأدية آلية ، لكن مدارها التسبيح بحمد الاله وانجاز الأعمال النافعة • فالتقوى تعنى التسامى قدر الامكان الى أعلى المراتب الروحية • ويعتبر الصدق فى القول والاخلاص فى العمل من اهم الشروط التى تؤهل المرء لادراك مرتبة التسامى الروحى • وهذا واجب دينى وخلقى معا ، ويعتبر الرب « آجنى » القيم على المواثيق ، والرب «فاك» المهيمن على الحوار ، ويغضب كلاهما ان حاد المرء عن الصدق وانتهك العهد •

وتلعن ديانة البراهماناس الزنا وتعده خطيئة وجريمة ضد الآلهة ولا سيما الرب «فارونا» • ويخفف من شدة وقع الخطيئة ، اعتراف المقترف بأثمه •

ومن ثم ، تقسم اسفار الفيدا حياة المرء الى اربعة مراحل :

الاول ـ مرحلة التلمذة (ويطلق عليها براهماكارين) • ويدرس المرء خلالها سفرا او أكثر من أسفار الفيدا •

الثانى ـ مرحلة يطلق عليها رب البيت (اى جرهاستا) • وتتطلب من المريد تأدية الواجبات الواردة فى الأسفار ومراعاة الالتزامات المتصلة بالقرابين وموقف الفرد من المجتمع •

الثالث ـ مرحلة الزهد (أى فانابراستا) • عندما يمضى المريد وقته فى الصيام والكفارة •

الرابع ـ مرحلة التقشف (أى سانياسين)

وفيها يتجرد المريد من المال والمتاع ، ويهفو للاتحاد مع الله .

ومهما يكن من أمر ضعف الفكرة الدينية فى ديانة البراهمة ، فالى هذا الاساس الخلقى (١) ، يعزى صمودها وبقاؤها على الرغم من الانتقادات التى ما برحت توجه اليها .

٣ ـ فلسفة الأخرويات .

لا يعثر دارس أسفار الفيدا على أثر لفكرة الحياة الآخرة . ذلك لأن مناط العقيدة الهندوكية فكرة التقمص ، أى عودة الروح الى جسم حى سواء أكان انسانا أم حيوانا أم حشرة أم نباتا . اذ يكمن الرضا الربانى فى كسر حلقة التناسخ، فتظل الروح أبد الآبدين فى حالة سكون ، عوضا عن مكابدة اهوال الحياة فى صورة أو فى أخرى.

وتؤمن العقيدة البرهمية بأن التناسخ عقوبة تنزلها الآلهة بالروح لضلالها . بيد أنها تنظر فى بعض الاحيان الى عملية الاحياء (٢) على أنها نعمة لا نقمة يقتضى تجنبها : اذ تعتبر مكافأة العلم ببعض المكنونات الربانية ، وجزاء للفرد على ورعه وتقواه ، فيعود للحياة الدنيا انسانا كامل الصفات الحميدة ، ليستأنف رسالة الفضيلة على الأرض.

ومن هذا يتضح لنا تطور الفكرة الهندية عن عملية التناسخ :

ففى أسفار الفيدا الاولى يستنزل الآثم الى حالة العدم بينما يحرز الفاضل مرتبة الخلود .

وفى البراهماناس ، يولد الآثم والفاضل من جديد ليلقى كل منهما جزاء عمله فى أثناء حياته الماضية .

وهذا يقودنا لدراسة الآراء الفلسفية المتصلة بأسفار الفيدا مما ستتناوله دراستنا المقبلة عن « فلسفة الأوبانيشاد » .

جاكارتا فى أول فبراير سنة ١٩٧٠ .

فؤاد محمد شبل

---

١ ـ طاعة الوالدين ، الرفق بالحيوان ، الامتناع عن ارتكاب الموبقات ، محبة الناس ، الكرم ، كبح جماح النفس ، الزهد فى الملذات الاستخفاف بالمتاع الدنيوى .. الخ .

(٢) حلول الروح فى كيان مادى .